العلماء وراء معركة وادي المخازن

بقلم الاستاذ الحسن السائح

كانت الدولة المغربية تصدر أحكامها وتتخذ مواقفها بناء على فتاوى العلماء وتوجيهاتهم، حيث كان لهؤلاء من المعرفة والتقوى والاهتمام بالمصلحة العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يجعل لكلماتهم وأحكامهم وزنا تجب رعايته وتنفيذه، فكان العلماء هم الرأس المدبر والجهاز المشرع في الدولة. ونظرا لصلتهم بالشعب فقد كانوا ممثلين حقيقيين للشعب، وكانت جماعتهم تكون حلقة مرتبطة بكل الطبقات الاجتماعية، ولهذا كانوا ممثلين لكل طبقات الأمة بالانتخاب الضمني السكوتي دون حاجة إلى الاقتراع العام، كما كان العلماء يستندون في عملهم إلى أصل شرعي وهو (الأمر بالمعروف والنهي على المنكر) أو ما يعرف اليوم بالإفصاح عن حقوق الأمة السياسية والاقتصادية ورعاية المصلحة العامة والوقوف في وجه التيارات المنحرفة أو التي تخدم مصالح طبقة خاصة على حساب أخرى...

وقبل معركة وادي المخازن بقليل هدف محمد المتوكل المسلوخ إلى استمالة العلماء عن طريق إرهابهم أو تفريق وحدتهم، بيد أنهم أجابوه في رسالة مسهبة خالدة، ليضعوه في موقف حرج، وليبقى وحده يحمل حجرة (سيزيف) التي ستقصم ظهره في معركة وادي المخازن.

لقد فكر وقدر... وقدر العلماء فأحسنوا التقدير.

وصعد محمد بن عبد الله الصراع بينه وبين أبي مروان حتى استنجد بملك البرتغال فاستجاب له ليحقق هدفه الاستعماري والتبشيري في المغرب، وأراد محمد بن عبد الله أن يبرر عمله المشين فكتب إلى علماء المغرب ينتقد عليهم نكث بيعته ومبايعة أبي مروان عبد المالك السعدي.

ومن خلال هذه الرسالة نستشف بعد نظر العلماء، والتزاماتهم الدينية والأخلاقية، ومعرفتهم بدقائق الحياة السياسية في عصرهم وشجاعتهم الأدبية... وهذه الرسالة تعكس وعي المجتمع المغربي في هذا العصر حيث كان متيقظا، محاسبا نفسه وقاداته وعلماءه ولم يكن إمَّعة استسلاميا، وسنسوق نص الرسالة لندرك من خلالها ما

أردت إثارة الانتباه إليه، فقد كانت الرسالة جوابا عن رسالة محمد المتوكل التي يبرر فيها موقفه قائلا :

(ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين) وقد قال العلماء : إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه. وتهددهم فيما أبرق به وأرعد. وقال : فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله. وسمى النصارى : أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارى. فأجابه علماء الإسلام رضوان الله عليهم عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله، وهذا نص جواب تلك الرسالة حرفيا : (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضا عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد بن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب، فقولك خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناهاعن أعناقنا وعقدناها فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه وعلى سبيل الحق وتحقيقه، وسنشرح لك ذلك ونبينه ونسطره بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزينه. نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة وترك لك من الأموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لأحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده وأسسوا لدين الله قواعد وأركانا وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا، فلما وصل ذلك إليك ألقت إليك العباد أعنتها وملكتك أزمتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا باغين ولا منكرين إلى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جحدها حسما ثبت كما يجب عقدها فخرجت مبادرا له بدفعها ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل راية عهدها وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك فما هو إلا أن جرى القتال وحضر النزال رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص وجنودك تناديك ولات حين مناص، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك أن تركتنا وإلى من تكلنا فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوافرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة والمدينة المشهورة الجامعة فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحريم والأولاد والطارف والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلا الله تعالى الذي قال في مثلهم ومن أصدق من الله قيلا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضي مهملين إلا النظر في أمرهم وإعمال الفكر في التدبير على أنفسهم. فبينما هم على ذلك إذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائما بحجته سالكا في ذلك سبيل أبيه رحمه الله وحجته حسما تقرر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر إذ كان مولانا محمد الجد الأكبر عهد لأولاده مولانا أحمد ومولانا محمد الشيخ وإخوانهم لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر فالتزموا ذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع فقاتله على ذلك حتى تم له الأمر وانتظم فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده فلم ينازعه أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك رحمه الله ذلك وعهد إليك فلم ينازعكم أحد فأبى الله إلا الحق فأعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك، فإن سلمت هذا فأي

حجة تدلي بها وأي طريق تعتمد عليها وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد إذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك، فخلافته صحيحة لسعة جدك له فلم يبق إلا التغلب الذي تدلى به في مسألة عمك وفي قيامه عليك، فإن كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك إذ المعدوم شرعا كالمعدوم حسا فلم يبق بينكم إلا والملك بعد أبي ليلى لمن غلب، فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد رحمه الله. وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك إذ هو أكبركم في هذا التاريخ «فإن قلت» إن ما عقده الجد غير صحيح (قلنا) فقد ذكر الإمام الماوردي رحمه الله ورضي عنه في كتاب الأحكام السلطانية له في باب عقد الخلافة أن عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازعه أحد في ذلك. (فإن قلت) فعل عبد الملك ليس بحجة (قلنا) سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة إذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل وإقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الإجماع الذي هو حجة الله في أرضه، وكان أيضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإمارة ما نصه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان بن فلان ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة. (قال القاضي) أبو الفضل عياض رحمه الله في كتاب إكمال المعلم على شرح فوائد مسلم يعني لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذي تقلده من أمرهم، وفي الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم لا يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام. وفي الإكمال نفسه قال القاضي : والذي عليه الناس إن القوم إذ بقوا فوضى مهملين لا إمام لهم فلهم أن يتفقوا على إمام يبايعونه ويستخلفونه عليهم، ينصف بعضهم من بعض ويقيم لهم الحدود. فلما أسلمتهم وأضحوا بغير إمام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ويئسوا من رجوعك إليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم إلا الرجوع إلى ما عليه الناس رضوان الله عليهم، فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها إلا على وجه المكابرة، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية (فإن قلت) كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك (قلنا) إنما يلزمهم القتال ان لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لأن القتال على الحدود الشرعية إنما يكون بعد نصب إمام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضا جحدها. إيه ثم وصلت إلى مراكش الغراءالتي تجبى إليها الأموال من البوادي والأمصار وتشد إليها الرحال من سائر الأقطار، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور وأنواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملأى من كل شيء، فأما أسوارها ورحابها فهي كما قيل تربة الولي ومدرج الحلي وحضرة الملك الأولى والبرج النير الجلي فحللتها وتمكنت من أموالها وخزائنها ووافقك أهلها فما نكثوا ولا غدروا ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا أنكروا، فطلبت أيضا قتال عمك وجندت جنودا لا يجمعها ديوان حافظ ولا يعهدها لسان لافظ، فخرجت إليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول والرماة قد ملأت الهضاب والتلول، فما كان من حديثك إلا أن وقع القتال وحضر النزال بادرت هاربا محكما للعادة تاركا للرؤساء من أجنادك والقادة، فحلت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم أيدي المنايا، فتركت أيضا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك ثم أسرعت هاربا إلى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها ولا قال لك أحد لست ببعلها، فعملوا على القتال معك والتمنع بأسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك

ونساءك وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ولا راجل ولا فارس، فيا لها من مصيبة ما أعظمها ومن داهية ما أعضلها، ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت إليهم أيدي السفلة من الفسقة، فأي حجة تبقى لك بعد هذا وأي كلام لك بين الرجال يا هذا، ثم جاءك عمك أيضا بما سلف من الحجج فوجد أهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج واطمأنوا وسكنوا ثم هربت للجبل عند صاحبه فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمائهم، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الأمن والأمان فأنت وهم في استيلائك عليهم وظلمك إياهم كما قيل:

إن هو مستوليا على أحد
إلاّ عَـلَى أضـعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا خصيم من ظلم دميا يوم القيامة، . ثم خربت العامر وأفسدت ما شيدت الأسلاف للإسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الأقصى ذلك أيقنوا أنك إنما قصدت خراب الإسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل في خلف كجلد الأجرب (فإن قلت) إن أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه (قلنا) لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من أهل الشام وفيهم من قد علمت من الناس والإجماع على صحة بيعته وسمى من تخلف عنها باغيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية، فقتله أصحاب معاوية رضي الله عنه. والحديث من إعلام نبوته عليه الصلاة والسلام والقاعدة : إن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ولا يعد خلاف من خالفه خلافا. وهذا كله بالنظر إلى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين والأخذ في التخليط العظيم على المسلمين، فإنك اتفقت معهم على دخول أصيلا وأعطيتهم بلاد الإسلام، فيا لله ويا لرسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد، ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم. (قال أبو حيان رحمه الله) : أي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم. (وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي رحمه الله) أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم وهم ما هم في استنصار ابن عباد الأندلسي بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها احروية مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء وأنه متى طرأ الكفر وجب العزل، وناهيك بقول النبي ﷺ : عليكم بالسمع والطاعة وبما أفتى العلماء رضوان الله عليهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين. فهو نص جلي في وجوب خلعك وسقوط بيعتك فلم يبق لك إلا منازعة الحق سبحانه في حكمه، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. (وأما قولك) في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى ففيه المقت الذي لا يخفى، (وقولك) رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله: أحدهما كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله ، والثاني أنك استعنت بالكفار على المسلمين . (وفي الحديث) أن رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلى النبي ﷺ فوجده بحرة الوبرة ، موضع على نحو أربعة أميال من المدينة ، فقال له : يا محمد ، جئت لأنصرك ، فقال النبي ﷺ : إن كنت

تؤمن بالله ورسوله ، فقال : لا أفعل ، فقال له عليه الصلاة والسلام : إني لا أستعين بمشرك . (وما سمعته) من قول العلماء رضى الله عنهم في الاستعانة بهم إنما هو على المشركين بأن نجعلهم خدمة لأزبال الدواب لا مقاتلة ، فأما الاستعانة بهم على المسلمين فلا نخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه ، وقد قيل قديما لسان العاقل من وراء قلبه . (وفي قولك) يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه وجعلت قولك هذا قضية أنتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضا والعياذ بالله . (وقولك) فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله أي أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه ، فتأمل ما قلت ، ففي الحديث يتكلم أحدكم بالكلمة تهوى به في النار سبعين خريفا ، (ولما سمعت) جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان وأشرق عليهم شعاع الإيقان ، فمن قائل يقول : لا دين إلا دين محمد ﷺ ، ومن قائل يقول : سترون ما أصنع عند اللقاء ، ومن قائل يقول : وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ، ومن قائل يقول : إنما قصد التشفي بالمسلمين إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الأفعال القبيحة إلى غير ذلك ، فجزاهم الله عن الإسلام خيرا ورضي عنهم وبارك فيهم فَلِلَّهِ درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان ، فلو لم يكن منهم إلا ما غير قلوبهم عن الدين لكان كافيا في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم ، فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب في الله والبغض في الله من قواعد الإيمان . (وقولك أيضا) متبرئا من حول الله وقوته : فإن لم تفعلوا فالسيف ، فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله ، فقد نبا سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ثم زال نبوه الآن بالكفار ، فهذه أضحوكة فتأملها . (وأما ما نسبته) لإمام دار الهجرة فكفاك عجزا إن لم تعين لنا نصا جليا نعتمد عليه فيما تحتج به إلا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لا معربا بنصه . (وما نسبته) للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر فهو مما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك إلى الحنفية إما قصور وإما إلغاء لمذهب مالك رضي الله عنه وهو النجم الثاقب (وأما قولك) : أنتم أهل بغي وعناد فلا نسلم لك ذلك إلا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتي ترى أنسلمك أم لا فأما إذ هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا على أنك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضي الله عنهم : من يقول بتكفير العامة فهو أولى بالتكفير وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد بن رشد والقاضي أبي الفضل عياض ، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، كيف وقع لأمرائهم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شيء مما قصدوه أو بلغوا شيئا مما أملوه على أن أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم الدنيا والآخرة والعياذ بالله . (وقد افتخرت) في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك وعولت على بلوغ الملك بحشودهم وأنى لك هذا مع قول الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . (وفي الحديث) عن النبي ﷺ : لن تغلب هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين لابات الدنيا . (وعنه) ﷺ انه قال : سيقاتل آخر هذه الأمة الدجال . (وعنه) ﷺ أنه قال : سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها . والكل عليك وإياك نعني . (وما ذكرته عن عمك) فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له والإسلام

بالنصر والتمكين والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك وقضي ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة ، ولولا الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الإسلام والمباهاة بها والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها إذ لا اعتماد له أيده الله عليها وكذلك هم لا اعتماد لهم إلا على حول الله وقوته ونصره وتأييده والناس على دين الملك وقد قاتلك وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية فأي نحس وشؤم حل بديار الروم ، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد ، ارجع إلى الله أيها المسكين وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة إن قبلتها وموعظة إن وفقت إليها والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام . انتهت الرسالة

هذه (رسالة العلماء) التي وقع عليها علماء المغرب وبالأخص علماء القرويين الذين يعتبرون في مركز القيادة الدينية اعتبارا لوحدتهم وتكتلهم في جامعة القرويين ، بينما باقي العلماء الكبار في مختلف المدن المغربية لا يتوفرون على الأكثرية والوحدة التي عقدتها يد جامعة القرويين ، وقد كانت وحدتهم ردا على وحدة الرهبان المسيحيين (المنضوين) تحت وحدة الفاتكان والعاملين تحت قيادته ، والذين تكتلوا في كنائس إسبانيا قصد مهاجمة الإسلام في عقر داره بفاس ومراكش ، وهيأوا الخطب التي ستلقي من فوق منبر القرويين ومنبر الكتبية بمراكش ، وحملوا الأجراس التي ستدق وتدوي فوق صوامع فاس ومراكش ، كما دوت فوق صومعة اشبيلية وصومعة مسجد قرطبة ، ولكن علماء الإسلام المغاربة تصدوا للحملة المسيحية ولم تلتبس عليهم طبيعة الأمور في هذه المعركة الفاصلة ، فالرسالة في جوهرها معبرة عن تتبع الأحداث ، ووعي المرحلة ، وشجاعة الموقف ووحدة الصف... وهذه الخصال الأربع كافية لتحقيق النصر .

كما أنها في أسلوبها بليغة ، دالة على اطلاع تاريخي وفقهي ، ومعرفة جانب السياسة الشرعية أو ما يعبر عنه اليوم بالقانون الدستوري ، ولم يغفل العلماء الذين دبجوها أن يمزجوا التحليل بالتعليل والفتوى بالحوار والجدل إشعارا بجدية الموقف وتجاوز الأحداث بالدخول في مهاترات وجدليات عقيمة ، فكل ما كان يساور المتقاعسين والخونة من هواجس، كانوا يهيئون عنه السؤال ويجيبون بيقظة وجدية وذلك دليل على دراستهم للموضوع من كل جوانبه.

والواقع أن وادي المخازن كانت نتيجة أحداث تتابعت لنجد حلها النهائي في هذه المعركة الفاصلة والتحليل التاريخي لما قبل وادي المخازن مما أفضي إلى ضرورة معركة فاصلة...

أما التحليل الأفقي لواقع المغرب قبل معركة وادي المخازن... فإن المسيحية ازدهرت بسقوط غرناطة وطرد الموريسكو ، واكتشاف أمريكا بينما دخل المغرب مرحلة الانحلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي بعد سقوط الأندلس وتضعضع دولة بني مرين التي جاءت لحماية الإسلام في الأندلس ، وقد عبر الهبطي والكراسي والفاسي وابن عسكر وغيرهم عن الأزمة الاجتماعية سواء في البادية أو الحاضرة، وكان سقوط دولة بني مرين التي كانت بيعتها من أجل إنقاذ الأندلس بسبب دخول المغرب في فتن داخلية بين إمارات صغرى متربصة في مراكش وفاس ودبدو وسبتة وسوس ، كما كانت محاولة العثمانيين لحكم المغرب تحت وحدة الخلافة الإسلامية لمواجهة التكتلات المسيحية عاملا على تأجيج الوضع في المغرب وضرورة تفجير المتناقضات في معركة فاصلة كانت هي معركة وادي المخازن.

الحسن السائح